صدى أحداث (8 ماي 1945)
في الأدب الجزائري المعاصر

الدكتـــور محمـــد العيـــد تاورتـــه
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعـــة منتوري ـ قسنطينة

توطئة:

ذكـــراك يا يـــوم *** تخز في الأحشـــا
إذْ أقـــبل القـــوم *** وحش تلا وحشا

***

يا يـــوم لم تشرق *** شمس على مثلك
آل الضحى مغـــرق *** والملتجى مهلك

***

يـــا يوم ذكراكا *** لـــم تـــبرح البالا
لـــو طاف مسراكا *** بالليث ما صـــالا

***

زرعت أحســـاكـــا *** منبتها الـــصـــدر
فكيـــف ننســـاكا؟ *** إنـــا إذن غـــــدر

من قصيدة للشيخ محمد البشير الإبراهيمي بعنوان: 08 ماي 1945م.[1]

تمهيـــد

سنقوم هاهنا بتتبع ورصد ما يمكن أن يكون محاولة للإجابة عن سؤال يتعلق بمدى تفاعل الكتاب والشعراء الجزائريين مع أحداث (8 ماي 1945) حال وقوع تلك الأحداث مباشرة، أوفي الفترات اللاحقة المتعلقة بإحياء ذكراها.

ولكن لابد هنا - قبل هذه المحاولة - من الإشارة إلى رؤى النقاد ومنظري الأدب، حول مدى وجود علاقة للإبداع الأدبي بالحياة المحيطة بالأديب المبدع أم عدم وجودها؟ وخلاصة هذه القضية أن هنالك نظريتين كبيرتين في هذا المجال، وهما: (نظرية الفن للفن) و(نظرية الفن للمجتمع)، فالأولى ترى أن الكيان الفني (النص الأدبي) مستقل بذاته، وأن قيمته تكمن في بنيته.[2] والثانية ترى أن الفن، ومنه (النص الأدبي)، إن هو إلا نبتة اجتماعية، تعبر عن الإنسان، وعن الأحداث في المجتمع أوفي المجتمعات البشرية؛ إن الأدب عند أصحاب هذه النظرية، إن هو إلا صورة للواقع، مع الاحتراز بأن لهذه الصورة خصوصيتها في التشكيل الفني.[3]

ومن جانبنا لا نرى أن الفنان والأديب على وجه الخصوص، يمكن أن تكون له أية جدوى في مجتمعه وفي أعماله الإبداعية إذا لم يتأثر بما يجري في محيطه الاجتماعي، وإذا لم يتفاعل مع ما يقع فيه، سلبا أو إيجابا، مع العناية والاحتفاظ بوسائله الفنية التعبيرية التي تجعل لتأثره خصوصية متميزة عن الكيفيات التي يتأثر بها الناس الآخرون مثل الصحفيين والمؤرخين وغيرهم ممن يعيشون في محيط الأديب أو الفنان بشكل عام.

ولأن الأديب الجزائري في الفترة الاستعمارية كان يعاني - مثل كل الجزائريين - تلك الضغوط والمظالم الاستعمارية، فإنه لا يعقل إلا أن تكون له ردود أفعال إبداعية (شعرية أو نثرية)، ونحن هنا نحاول أن نتلمس ردود

أفعال أدبائنا وشعرائنا إزاء أحداث (8 ماي 1945) التي سلطها الاستعمار على الجزائريين.

لقد تحدث النقاد والدارسون الجزائريون - على وجه الخصوص - عن صدى هذه الأحداث في الأدب الجزائري ورأوا أن هناك نقصا وصمتا لدى أدباء الجزائر، وبخاصة في أثناء الأحداث؛ يقول الدكتور عبد الله الركيبي:

« وعلى الرغم من أن هذه المأساة قد هزت كيان الشعب الجزائري، وأيقظته من غفلته، وهزت العالم أجمع، على الرغم من ذلك، لم نجد قصائد كثيرة تشيد ببطولة الشعب الجزائري أو حتى تسجل هذا الحدث البارز ولم أدر لماذا؟».[4]

ويتحدث الدكتور صالح خرفي عن أوضاع الشعر الجزائري في هذه الفترة وعلاقته بالحركة النضالية للشعب، وعن مدى تعبيره عن مأساة الثامن من (ماي) 1945، فيقول: «وأبعاد حوادث (ماي) في الشعر الجزائري أبعاد قاتمة وخانقة، فقد انحبس الشعر في أهواله الرهيبة، وأصيب بذهول ووجوم وتلك هي الصدمة التلقائية لمثل هذه المواقف:

ومعذرة اليراعة والقوافي *** جلال الرزء عن وصف يدق».[5]

وإذا كان الدكتور صالح خرفي قد وجد العذر لشعراء تلك الفترة في ثقل الرزء، على عكس الدكتور عبد الله الركيبي الذي تساءل عن صمتهم ولام الكبار منهم على وجه الخصوص، لعدم تفاعلهم بسرعة مع تلك الأحداث، في شكل نصوص أدبية فنية خالدة، فأين تكمن حقيقة صدى أحداث (8 ماي 1945) في أعمال أدباء الجزائر؟ حقا، إننا لم نعثر على قصائد أو أعمال أدبية مؤرخة في أثناء تلك الأحداث مباشرة ولعلها ما تزال مخطوطة – وهوما نأمله – أو لعلها منشورة في مواطن لم نصل إليها، مثلما

لم يصل إليها النقاد قبلنا، أو لعل هذا الافتراض منّا غير صحيح أصلا؛ لحرمان التعبير وصعوبة النشر؟

لكن الأهم - فضلا عن هذه التساؤلات المشروعة حول أحداث غير مشروعة - هو أننا وجدنا قصيدة من الشعر الملحون قيلت قبل أحداث (8 ماي 1945) مباشرة سجلت واقع الشعب الجزائري، وظروفه إبان الحرب العالمية الثانية وبعد دخول قوات الحلفاء (الأطلسيين) إلى الجزائر، ووجدنا كذلك نشيدا للكشافة الإسلامية الجزائرية يتحدث عما جرى في شهر (ماي) في مدينة سطيف، ويستنهض همم الشباب للوقوف إلى جانب الوطنيين من أعضاء حزب الشعب الجزائري.. ألا يمكن أن نعد مثل هذه النصوص تعبيرا أدبيا آنيا عن تلك الفترة - الحرجة والمؤلمة في تاريخ الشعب الجزائري - إنها الفترة التي سبقت الأحداث مباشرة؟

بلى، إن نصوص الشعر الملحون وكذلك نصوص الأناشيد الوطنية تعد شواهد تعبيرية أدبية على تلك الفترة، ولا ننسى أن الأناشيد الوطنية الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات، كانت من أهم ما يعبّر به الشباب - والشعب كله - عن حماسه وعواطفه وثورته. ومن أهم الأناشيد الجزائرية الخالدة في هذا الباب، نشيد (فاشهدوا) للشاعر مفدي زكرياء،[6] ونشيد (جزائرنا يابلاد الجدود) للشاعر محمد الشبوكي،[7] ونشيد (شعب الجزائر مسلم) للشيخ عبد الحميد ابن باديس.[8]

أما قصيدة الشعر الملحون التي أشرنا إليها قبل قليل، فقد جاءت معبرة عن الفترة التي أعقبت (نص البيان الجزائري) الموجه إلى الحلفاء وكذلك نص (ملحق البيان الجزائري) والذي خرجت به قيادات الشعب الجزائري من خلال (اللجنة الإسلامية الأولى)، ثم (لجنة الإصلاحات الإسلامية الثانية) ما

بين شهري (أفريل وجوان) 1943م.[9] وكاتب القصيدة يتوجه بالشكوى إلى الحلفاء (الأنجليز والأمريكان) من أفعال الفرنسيين في الجزائر، فيقول:

ياعمـــي (جـــوني) لفرنسيس راهم ظلموني
بالشر قـــتـــلـــوني سلطـــوا علي (الميزيرية)
أنت (سكســـوني) ماشفناشـــ منك الدوني
قـــرب الهونـــي نحكيلك ما صاير بـــي
لغتنا افنـــــات حتى جوامعنا (تفرمات)
ما بقات حيـــاة ذكريات كثرت علـــي
فرنسا المقهورة بأعمالها السيئة المشهورة
كي تدور دورة تعمل فينا ربع مـــزيـــة

وبعد أن يستعرض الشاعر من خلال خياله الساخر آراء قيادات الشعب الجزائري المختلفة والمتنوعة، ما بين متطرف في طلب الاستقلال ومتطرف في مساندته لفرنسا ورضاه عن الوضع الجزائري في ظلها يقول:

جابو مصالـــي من منفاه في الثلث الخالي
مغبون بحـــال على الأمـــة الجزائريـــة
أول ما قـــال قال اعطونا الاستقـــلال
ولينا رجـــال رانا فهمنا المسؤوليـــــة
رانا ترقينـــــا يجزي مـــا تحرثو علينـــا
آش هذ الغبينا راح زمـــان (الفنطزيـــة)

* * *

تكلم بن قانة قال احنا ما شفنا هانـــه
هذوم اعدانا أنفوهـــــم للبرواقيـــــة

* * *

قام التيجاني قال الصمت يا اخوانـــي
أنا بلسانـــي ولســـــان الطرقيـــة
نعطو ضمان بلـــي رانـــا في الأمـــان
يسقط (بيتان) تحيا فرنســـا (الديقولية)

ويصل الشاعر - في نهاية هذه القصيدة الشعبية الطويلة التي حملت من خلال الخيال والسخرية آراء الأحزاب والاتجاهات الوطنية الجزائرية أواسط الأربعينيات - إلى نتيجة مفادها: أن لا شيء سيتحقق للشعب الجزائري في أثناء الحرب العالمية الثانية، وأن كل شيء مؤجل إلى ما بعد الحرب؛

(أبري لاقـــير) رانا ننـــظـــر فـــي (لافير)
ابقوا على خير ما نحبـــش تولـــوا لـــي.[10]

ولكن ماذا كان بعد الحرب في الجزائر؟ لقد كانت أحداث (8 ماي 1945) وتبخرت وعود الحلفاء - مثل ما تبخرت قبلها وعود الفرنسيين - وتبخرت معها مطامح الشعب الجزائري في الحصول على حقوقه بالطرق التفاوضية.

وأما النشيد الذي صور ضحايا الشعب الجزائري في شهر (ماي 1945) فهو نشيد الكشافة الإسلامية الجزائرية وهو النشيد الذي دعا أيضا إلى العمل من أجل الوطن دون الخوف من الرصاص ومن الموت؛ قال الشاعر:

حيـــو الشمـــال يـــاشبـــاب حيـــــو الشمـــــال الافريقـــــي
قوموا للحزب الوطـــن ياشباب تبكي العيون كيف لا تبكي العيـــون؟

على الليماتوا في السجون ياالخواني في أول (ماي)، الجزائر في أول (ماي) ضاعت شبان الوطن في أول (أفريل)، الجزائر في أول (أفريل) ضحت شبان التحرير بالطيارات فرنسا بالطيارات في قالمة قتلت نساء وبنات على السطايفية ياحزبي على السطايفية ماتوا الحب الحرية قوموا ياناس للعمل قوموا ياناس للوطن قوموا ياناس ماتخافوش من ضرب الرصاص فضيت كلامي ياشباب فضيت كلامي.(11)

وما يزال هذا النشيد يثير شجون وعواطف وحماس الشعب الجزائري حتى اليوم، وسيظل كذلك لكونه صور أحداثا مؤلمة في تاريخ الشعب الجزائري، كما دعا إلى الاستهانة بالموت في سبيل حرية الوطن، وهو ما حدث بالفعل في أعقاب أحداث (8 ماي 1945) المؤلمة، والفاصلة بين مرحلتين متباينتين في مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي.

وإذا تركنا القصيدة الشعبية التي صورت ظروف الجزائر قبيل أحداث (8 ماي 1945)، وتركنا أيضا نشيد الكشافة الذي خلد ما جرى إبان الأحداث، ودعا إلى ما ينبغي على الشباب فعله للرد عليها - وعدنا إلى محاولة الإجابة عن أسئلة النقاد المتعلقة بسبب صمت الأدباء والشعراء الكبار في الجزائر إبان تلك الأحداث - فإننا نجد الأجوبة عن ذلك عند الأدباء والشعراء أنفسهم.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - وكان من أبرز الأقلام الأدبية في الجزائر خلال الربع الثاني من القرن العشرين، بل وإلى وفاته بعيد الاستقلال - يقول عن صمت الأقلام في التعبير عن شهر (ماي) 1945 وعن الثامن منه على وجه التحديد - (وغبنت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير ولا تدوين).[12] ويقول الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة - شاعر الشباب وشاعر الجزائر وشاعر الشمال الإفريقي على مختلف الألقاب التي عرف بها آنذاك - يقول متحدثا عن هول ما جرى للشعب الجزائري إبان أحداث (8 ماي 1945م).

فيالك من خطب تعذّر وصفـــه فلم تجر أقلام به فوق أطراسي.[13]

ويتخيل الشاعر الشهيد (الربيع بوشامة) شهر (ماي) إنسانا واجما من هول الظلم الذي وقع عليه وفيه، فيقول مخاطبا إياه:

لي فيك يا (ماي) النّوائب والردى ذكرى ستبقى طيلة الأعـــوام

فقدان خيـــر أب وأكرم صحبة وجحيم سجن حُـــفَّ بالإعدام

يا (ماي) قد ظلموك حقا مثلما ظلموا الضعاف، وشوهوك بذام

يا (ماي) مالك واجما لم تنتقم أو ما سقاك الظلم أسوأ جـــام؟؟

يا (ماي) إنا في انتظار حكومة فمتى يساق الظـــلم للإعدام؟.[14]

فالكارثة إذن عطلت المشاعر والأحاسيس وكانت أكبر من أن يعبّر عنها بالشعر والأدب في حينها، وإنما تجمدت العيون، وتبلدت الحواس، وقست القلوب، واتجه الناس جميعا بمن فيهم الشعراء والأدباء إلى البحث عن فعل من نوع آخر، وذلك الفعل هو الذي تمثل بعد ذلك في الثورة المسلحة الكبرى في أول نوفمبر 1954م، ولعل ما قاله الشاعر نزار قباني تعبيرا عن موقف آخر مأساوي كذلك، ولكن بالنسبة لكل العرب، وذلك الموقف هو نكسة (5 جوان) 1967م - أقول: لعل ما قاله الشاعر نزار قباني يصدق -

هول الصدمة - على موقف شعراء الجزائر من نكبة (08 ماي) 1945م. يقول نزار قباني مخاطبا الوطن العربي:

يا وطني الحزين
حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين.[15]

وبالإضافة إلى هول الكارثة - التي أسكتت الجميع وزهدت حتى الشعراء والأدباء في الكتابة عنها - فإن وسائل النشر نفسها لم تكن متوفرة آنذاك؛ فالصحف كانت متوقفة في أثناء الحرب وبخاصة صحيفة (البصائر) التي لم تعد للصدور إلا سنة 1947م؛ والمطابع نادرة أو معدومة، ولذلك أشرنا قبل قليل إلى أنه قد تكون هنالك بعض الكتابات التي لم تنشر في حينها، ولعلها مازالت مخطوطة عند أصحابها أو لدى ذويهم، وقد تظهر تلك المخطوطات لاحقا؟

ولكن، هل إذا لم نجد أشعارا ولا أنواعا أدبية أخرى، قيلت أو كتبت مباشرة في أثناء الأحداث، أو على الأصح أرخها أصحابها أو نشروها في فترة الأحداث من سنة 1945 — مثلما لاحظ النقاد والدارسون في مجال الأدب الجزائري الحديث والمعاصر.[16] — فإن معنى ذلك أن تلك الأحداث بقيت غفلا من غير ذكر لها؟ كلا، بل لعل العكس من ذلك هو الذي حدث؛ ذلك أن هناك أعمالا أدبية شعرا ونثرا، باللغة الفرنسية وباللغة العربية، بالشعر الشعبي وباللغة الفصحى على حد سواء، وخلدت جميعها تلك الأحداث، بأن وصفتها ووصفت ظروفها وما وقع في أثنائها للشعب الجزائري؛ مع الاحتراز هنا بأن تلك الكتابات قد جاءت من كتابها في فترات لاحقة على الأحداث بعد أن استعاد الأدباء والجزائريون عموما -

توازنهم النفسي من جراء صدمة تلك الأحداث التي لم يجدوا لها مبررا أبدا، إلا في حقد الاستعمار الفرنسي على الجزائريين.

أما كتاب الجزائر باللغة الفرنسية، منذ أواسط الأربعينيات، فإنه يمكن ملاحظة أن إحياء ذكريات أحداث (8 ماي 1945) أصبح واحدا من الموضوعات الرئيسية في أعمالهم الأدبية على مختلف أنواعها الشعرية والنثرية، وهو ما وجد في أعمال مثل: (سطيف في ماي) للشاعر قدور محمصاجي، و(نشيد الناجين) لمؤلف مجهول، و(أبناء العالم الجديد) لآسيا جبار، و(البصمة الأخيرة) و(التلميذ والدرس) لمالك حداد و(نجمة) و(الجثة المطوقة) لكاتب ياسين.. وغير ذلك من كتابات الجزائريين الأدبية باللغة الفرنسية.(17)

وأما الشعر الشعبي فقد أسهم أيضا في إحياء ذكريات هذا الحدث الكبير يقول الشاعر: إبراهيم ابسيسه في قصيدة حول (مأساة يوم 8 ماي 1945):

يوم أثمنية (ماي) مـــاداروا الأرذال جيش الاستعمار بظلمه وادغالو
في هذا التاريخ جوزنا الاهـــــوال امسجل شاهدبـــيه أجيالـــــو
اللّي عنده النّيف لا ينسى محـــــال الظلم اللي جـــاز عنا بهـــوالو
يبقى ذكرى انذكروبيها الأجيـــال واش دار الاستعمار هوومفعالوا
فالخمسة وربعين شهدوا به ارجال جيش الاحتلال قـــام بظـــلالو

وبعد أن يسرد الشاعر كل ما قام به الاستعمار وأعوانه من قتل ونهب وسجن وتدمير للقرى والممتلكات، وبعد أن يذكر الأماكن التي لحقها ذلك التدمير، ويذكر حتى بعض الشهداء الذين سقطوا في تلك الأحداث — يدعو إلى الجهاد من أجل تحرير الوطن، وذلك انطلاقا من الجبال الجزائرية يقول:

ياجيش الكفاح اسكن في الجبال وحارب الأعداء اللي عنك صالو

حرر وطنك من جيش الاحتلال الوطن العزيز يحيا برجالـــــو.[18]

ولقد أحيا الأدب العربي الفصيح في الجزائر ذكريات أحداث (8 ماي 1945) في السنوات اللاحقة لذلك التاريخ: فالشيخ محمد البشير الإبراهيمي - وقد كان من أبرز الأقلام الأدبية والصحفية في الثلث الثاني من القرن العشرين في الجزائر - قد نشر سنة 1948م في صحيفة البصائر العدد[19] قصيدة ومقالة عنوان كل منها (ذكرى 8 ماي)،[20] وكتب الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة قصيدة طويلة في إحياء ذكرى تلك الأحداث، وهي بعنوان (لا أنسى)،[21] ووجدنا هذا الشاعر يذكر شهر (ماي) في قصيدة أخرى تحمل عنوان (من وحي الثورة والاستقلال).[22] ووجدنا للشاعر أحمد الطيب معاش حول هذا الموضوع قصيدتين طويلتين؛ الأولى بعنوان: (ذكرى 8 ماي بين دلال "الألب" وجبال الأطلس)، والثانية بعنوان (في ذكرى شهداء (8 ماي 1945 – 1985).

ولقد نشر هذا الشاعر قصيدتيه مرتين؛ المرة الأولى في ديوانه الكبير (التراويح وأغاني الخيام)،[23] والمرة الثانية في مجموعة مستقلة من القصائد سماها (مع الشهداء)،[24] وأما شاعر الثورة مفدي زكرياء فقد جاء حديثه عن أحداث (8ماي 1945) في سياق سرد أحداث تاريخ الجزائر في (إلياذته) التي كتبها لهذا العرض.[25] وكنا نأمل أن نجد لهذا الشاعر الثوري الكبير تخليدا آنيا لأحداث (8 ماي 1945)، وذلك لما لهذا الشاعر من مواقف سياسية ونضال طويل ضمن حزب (الشعب الجزائري).

وكتب الشاعر أبوبكر مصطفى بن رحمون في إحياء ذكرى الأحداث التي نحن بصدد الحديث عنها قصيدة بعنوان (من عدوان السلطة الفرنسية في القطر الجزائري: حادثة يوم (8 ماي سنة 1945) وهي منشورة ضمن ديوانه،[26] كما كتب الشاعر الشهيد (عبد الكريم العقون) قصيدة معبرة في إحياء ذكرى تلك الأحداث وهي بعنوان (الكون ضاق بكل حكم جائر)، نشرها له الشاعر والكاتب محمد الأخضر عبد القادر السائحي ضمن مجموعة القصائد والتراجم التي تحمل عنوان (روحي لكم).[27] وأما الشاعر السائحي الكبير فقد أحيا ذكرى شهـــداء (8 ماي 1945) بقصيدة تحمل عنوان (أيها الذاهبون أمس ضحايا) ونشرها ضمن ديوانه (همسات وصرخات) نورد منها هذه الأبيات؛ قال:

أيها الذاهبون أمس ضحـــايا أخضبت بعدكم رمال وبيد
دمكم فجر الحيـــاة عليهـــا فهي بعد الدماء شيء جديد
جرف الغاضبين كالسيل حتى لم يعد غاضب لدينا وحيد
طلب الثأر بعدكم فانطلقنـــا وتلاقى شهيدة وشهيـــد
ثم عدنا ترفرف الراية الخضراء من فوقنا ويعلـــو النشيـــد[28]

ولعل الشاعر الشهيد (الربيع بوشامة) كان من أهم شعـــراء الجـــزائر قبل الاستقلال إحياء وتخليدا في شعره لذكريات أحداث (8 ماي 1945)؛ ذلك أننا وجدنا لـــه عـــدة قصائد حول هدا الموضوع ضمن ديوانـــه الذي ظهر ضمن منشورات (المتحف الوطني للمجاهد) بالجزائر العاصمـــة، ومن جمع وتقديم الدكتور: جمال قنان.[29]

والحق أنني لا أزعم في هذا العمل الإحصاء الشامل لكل ما كتب شعراء الجزائر وأدباؤها في مجال إحياء ذكريات الثامن من ماي سنة 1945، ولهذا يبقى الباب بالتأكيد مفتوحا لإضافة أشعار وكتابات أدبية جزائرية في

محمد العيد آل خليفة قد خلد كل تلك الأيام الكبرى وغيرها في شعره؛ لقد قال عن ذكرى (الخامس من جويلية سنة 1830) م:

في مثل هذا اليوم ريعت أمتـــي بالاحتلال، ونالها ما نالهـــا
ولعلّ من جعل الصليب يظلها سينير من خلف الغيوم هلالها[31]

ولقد تحققت مقولة شاعرنا بفضل الله، وبفضل دماء الشهداء، وبفضل مقاومة الشعب الجزائري وتضحياته طوال أكثر من قرن وثلث قرن.

وبمناسبة احتفالات فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر، وهي الاحتفالات الصاخبة التي هزت مشاعر الجزائريين ومست كبرياءهم، قال شاعرنا:

أطلت بجانبي يا ضيف فارحـــل لحـــاك الله مـــن ضيف ثقيل
مضى بك مذ نزلت عليّ قـــرن متى يا ضيف تؤذن بالرحيل؟.[32]

ومع أننا لا نستصيغ كلمة (ضيف) للاستعمار، إلا أن الشاعر قد وظفها ضمن أسلوبه السلس المرن بحيث أدت معنى السخرية من ذلك الاستعمار الثقيل وأدت معنى الطرد له من بلادنا.

وأما أحداث الثامن من (ماي 1945) فقد خلدها الشاعر محمد العيد مرتين على الأقل في ديوانه؛ الأولى في قصيدة بعنوان (لا أنسى)،[33] وهي قصيدة طويلة استهلها بالاستفهام والتساؤل عن كتمان إحساسه وألمه إزاء الجرح العميق من جراء ما صنع الاستعمار في أحداث (8 ماي) سنة 1945م؛ فقال:

أ أكتم وجدي أو أهدئ إحساسي و(ثامن ماي) جرحه ماله آســـي
وأرقب ممن أحدثـــوه ضمـــادة وهم في جماح لم يميلوا لإسلاس

تمرّ الليالي وهو يدمي فلم نجـــد له مرهما منهم سوى العنف والباس

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن العلاقة بين أفعال الاستعمار في تلك الأحداث، وبين ما كان يقول به ذلك الاستعمار ويوهم الشعب الجزائري من خلاله، فيرى بأن أفعاله في أحداث (8 ماي) قد كشفت كذبه وزيفه وأبرزته في صورة فظيعة، بحيث لا يمكن تصديق أي قول يصدر عنه بعد ذلك.

فظائع (ماي) كذبت كل مزعم لهم، ورمت ما روجّوه بإفلاس

وينتقل الشاعر بعد هذا إلى وصف جرائم الاستعمار المادية التي سلطها على الشعب الجزائري الأعزل، وعلى كل فئاته من كبار وصغار، نساء ورجال ... وعلى ممتلكاته في المدن والقرى والأرياف؛ فقال:

ديار من السكان تخلى نكاية وعسفا، وأحياء تساق لأرماس
وشيب وشبان يسامون ذلة بأنـــواع مكر لا تحـــد بمقياس.

وبالإضافـــة إلى وصفه لأنواع التدمير للمتلكات، وأنواع القتل للبشر، فإنه يفصل ما حل بكل جنس من الجزائريين في تلك الأحداث؛فأما الرجال - أوعلى الأصح من لم يمت من الرجال - فقد أودعهم المستعمر السجون والمعتقلات الجماعية، وأما النساء فقد أهنّ وأوذين في أعز ما تتميزن به وهو شرفهن، فضلا عن نهبه لما لهنّ من حليّ، فقـــال:

وأحباس شر أجمعت سجناؤها ومعتقلوها أنها شـــر أحبـــاس
ومعتقلات في العـــراء مبيـــدة عليها لصوص في ملابس حراس

وغيد من البيض الحسان أوانس تهـــان على أيدي أراذال أنكـــــاس

ويسلبن من حليّ لهن مرصـــع بكل كريم، من جمـــان وألمـــــاس

وينكبن في عرض لهن مطهـــر مصون الحواشي طيب العرف كالأس

ولهـــول هذه المظالم والمصائب الذي ذكرها الشاعر، وتلك التي لم يذكرها، فإن الأقلام كفت وجفت عن وصفها وتعدادها:

فيالـــك من خطب تعذر وصفـــه فلـــم تجر أقلام به فوق أطـــراس

غير أن العلاج النهائي من الأذى الاستعماري لم يعد في نظر الشاعر في تعداد المصائب ووصفها، وإنما ينبغي أن يتجه إلى الاستعداد والتحضير المادي بالمال والسلاح والتضحيات التي أصبحت الوسيلة الملائمة لمواجهـــة ظلما لا يرحم؛ قـــال:

ولا خير في عد المظالم وحـــدها إذا لم تبن عن مرهفـــات وأتراس

سئمنا من الشكوى إلى غير راحم وغير محـــق لا يدين بقسطـــاس

ويصل الشاعر محمد العيد آل خليفة في هذه القصيدة إلى نتائج أهمها:

- أن وعود الاستعمار كالسراب لا يمكن أن تتحقق أبدا، وأن الفراق أو التحرر من ذلك الاستعمار أصبح ضرورة حتمية جراء ما وقع للشعب الجزائري في أحداث (8 ماي 1945م)، وأن على الشعب الجزائري أن يتخلص من اليأس، وأن يتجه إلى الاستعداد وإلى العمل الثوري، متسلحا في ذلك بعدم نسيان ما فعله الاستعمار الفرنسي في الجزائر مدى الزمن الذي احتلا فيه هذه البلاد؛ فيقول:

وما وعدهم إلا سـراب بقيعة وما عهدهـم إلاّ مداد بقـرطاس
ويا أيّها الشعب المروّع لا تضق بدنيـاك ذرعا واطّرح خلق الياس
وقل للذي آذاك لا وصل بينـا وموعدنا العقبى فما أنا بالناسي.[34]

أما المرة الثانية التي خلد فيها الشاعر محمد العيد آل خليفة أحداث (8 ماي 1945)، فقد جاءت في قصيدة طويلة أيضا بعنوان: (من وحي الثورة والاستقلال)،[35] مزج فيها الشاعر بين أحداث ثورة نوفمبر 1954، وبين أفراح عيد الاستقلال سنة 1962، دون أن ينسى الأيام الخالدة في تاريخ الجزائر وشعبها، ومنها يوم (8 ماي 1945م)، قال الشاعر:

وطني المفدى بالكفاح تحـررا ومصيره بعد النجاح تقررا
فابن الجزائر صار سيد أرضهـا والغاصب المحتل ولّي مدبرا
قد كان تحرير الجزائر غايـة مثلى لثورتنا وفتحا أكبـرا
جمعية الأمم اصطفتها دولـة وبنت لها بين المنابر منبـرا
لم ننس (مايو)، لا، وَلاَ مَأْسَاتَهُ حتى جبهنا الغاصب المتجبرا

ومن حديثه عن الثورة وانتصاراتها وسمعتها بين الأمم، وعن الماضي المؤلم في ظل الاحتلال ... إلى حديثه عن شهر الاستقلال والأعياد التي أقيمت فيه، فيقول:

يا شهر (يوليو) أنت وافد رحمـة ونزيل يمن نستطيب له القـرى
أنت (المسيح) ونحن من أحييتهـم فارق السماء مقـدّسا ومقدّرا

قد جاء نصرك غاسلا للشعب من عـــار احتلال الأجنبي مطهّـــرا
فالشعب أجمع يحتفي بك راضيـــا مستبشرا، ويراك عيدا أكبرا.[36]

2/ محمد البشير الإبراهيمي : (1965-1989)

لقد أسهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في العمل من أجل الجزائر في عدة ميادين ومنها ميدان الكتابة الأدبية والصحفية وبخاصة في فترة الأربعينيات والخمسينيات إلى وفاته؛ فقد ترأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة ابن باديس سنة 1940، وترأس صحيفة البصائر في سلسلتها الثانية ما بين (1947) و(1956).

ومن بين القضايا التي كتب عنها الإبراهيمي هي إحياؤه لذكـــرى أحـــداث (8 ماي 1945)؛ فقد وجدنا له في هذا الموضوع (قصيدة) و(مقالة)، وكلتاهما تحمل العنوان نفسه (ذكرى 8 ماي)؛ نشرت القصيدة في العدد الخامس والثلاثين من صحيفة (البصائر الثانية) سنة 1948، ونشرت المقالة في العدد السابع والثلاثين من الصحيفة نفسها سنة 1948 أيضا.

وإذا كان محمد العيد آل خليفة يعد أكبر شاعر في عصر النهضة الجزائرية، فإن الشيخ البشير الإبراهيمي يعد أكبر كاتب في الفترة ذاتها، ومع أن هذا الأديب قد خلد ذكرى (8 ماي) بالشعر والنثر، إلا أن كتابته عنها بالنثر كانت أعمق فهو من الذين يمكن أن نقول عنهم إنهم يشعرون نثرا ويكتبون شعرا؛ فقد حشد للحديث عن إحياء ذكرى تلك الأحداث في مقالاته تلك مجموعة هائلة من الأوصاف والتشبيهات والصور البيانية والإنسانية العميقة.

لقد وصف الإبراهيمي ذلك اليوم (8 ماي 1945) باليوم (المظلم) بسبب ما وقع فيه من ظلم على الخلائق في الجزائر، وتصور لهذا اليوم

حواشي وجوانب، ووصف تلك الجوانب بأنها مطرزة بالدماء المسفوكة ظلما، وشبه الأرض في ذلك اليوم بالإنسان المفجوع، فهي مقشعرة بما وقع عليها من بطش الأقوياء. أما السماء فهي مبتهجة مسرورة بما وصل إليها، أو ارتفع إليها من أرواح الشهداء.

لقد خرجت الشمس في ذلك اليوم، في الجزائر، عن طبيعتها من جراء الحزن العميق، فلا حياة ولا نور. وإن هذا اليوم وهذا الشهر كله - قد خرج كذلك عن سنة الطبيعية الربيعية، فلا تجد فيه أزهارا ولا ثمارا.

إن الهول الواقع في ذلك اليوم، وفي ذلك الشهر، قد أذهل العقول، وبلد المشاعر، وجفف الأقلام (وغبنت حقيقته عن الأقلام، فلا تصوير ولا تدوين).[37]

وينتقل الكاتب من وصف المظهر الطبيعي الخارجي لذلك اليوم وذلك الشهر، إلى وصف سلوكات الاستعمار في الجزائر، وهنا لا يستغرب الكاتب أفعال الاستعمار؛ فقد تعود الجزائريون تلك الأفعال طوال أكثر من قرن، ولكنه يستغرب منه - وهو المهزوم في الحرب والمنهوك من جرائها - أن يعيد آثارها بعد انتهائها على الجزائريين، بعد أن ساندوه في الحرب، وتحملوا معه قساوتها إلى أن كان له النصر فيها. (ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة، كما يجرب الجبان القوي سيفه في الضعيف الأعزل).

ومن هنا يربط الكاتب بين الاستعمار وبين الحرب في الشؤم وفي السوء؛ إنهما سليلا أبوة واحدة، وهما متلازمان، فلا يكون الاستعمار إلا بالحرب، ولا يكون الحرب إلا وسيلة للاستعمار. «وقد تلاقت يداهما الآثمتان في هذا اليوم في هذا الوطن؛ فالحرب مودع إلى ميعاد، فقعقعة السلاح تحيته، والاستعمار مزمع عن البقاء في هذا الوطن إلى غير ميعاد، فجثث الضحايا من الأمة الجزائرية ضحيته».

ويصل الكاتب - في التفاتة أسف حزينة على الضحايا الأبرياء من أبناء الجزائر العزل - إلى تقرير حكمة فلسفية تشخص طبيعة الاستعمار بدقة وعمق، ومفاد هذه الحكمة أن الاستعمار عدو للعقول البشرية، وعاص للشرائع السماوية. ودليل ذلك في رأي الكاتب، أن العقول تستحسن قتل القاتل، وتؤيدها الشرائع السماوية في ذلك، غير أن الاستعمار قام على قتل غير القاتل، ظلما وتعسفا،ثم طغى وتجبر، ونسخ حكم الله الآمر بالرحمة في الضعفاء والأبرياء. وبدلا من رحمة الضعفاء، قتل الشيوخ والأطفال والنساء والمرضى.

ولكي يبرز الكاتب شناعة فعل الاستعمار في الشعب الجزائري في أحداث (8 ماي 1945)، فإنه استغل ثقافته الواسعة والعميقة في مجال التراث العربي، حيث انتقى أسطورة (النعمان بن المنذر) التي مفادها: إن له يومين؛ (يوم نحس وبؤس، ويوم نعمى وسعد) وبينهما فسحة ومجال للحظ السعيد.

أما الاستعمار، فإن أيامه كلها (نحس وبؤس، وكلها سود حوالك). وإذا كان طائر النحس عند النعمان يقع على فرد واحد، فإن طائر الاستعمار يقع على أمم كاملة؛ تكون آمنة مطمئنة، فتصبح بين عشية وضحاها ضحايا مبعثرة على وجه الأرض.

وفي الفقرة التي تشكل صلب هذه المقالة يصف لنا الكاتب قمة الكارثة التي أنزلها المستعمر الفرنسي على الشعب الجزائري في أحداث (8 ماي 1945)، مع أن هذا الشعب عانى - ككل الشعوب والأمم - ويلات الحرب في جميع النواحي، ومع أن هذا الشعب لم يتسبب في تلك الحرب، ولم يكن طرفا فيها، ولم تكن له مصلحة فيها، اللهم إلا أمل في أن تصدق الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الوعود التي وعدت بها الجزائريين، من حيث

تحسين الأوضاع، والعدالة في الجوانب الاجتماعية، وفي سن قوانين غير عنصرية..

ولكن ماذا كانت النتيجة بعد انتهاء الحرب بالنسبة للشعب الجزائري؟ النتيجة أن الحرب العالمية الثانية انتهت مساء في (برلين) وبدأت صباحا في الجزائر؛ انتهى سفك الدماء في العالم، وبدأ في جزء صغير من العالم اسمه الجزائر؛يقول الإبراهيمي): (وفيما بين خطرة البرق، بين الغرب والشرق، أعلنت حرب من جانب واحد، وانجلت في بضعة أيام عن ألوف من القتلى العزل الضعفاء، وإحراق قرى، وتدمير مساكن، واستباحة حرمات، ونهب أموال، وما تبع ذلك من تغريم وسجن واعتقال؛ ذلك هو يوم (8 ماي 1945).[38]

ولا يجد الكاتب في الرد على كل تلك الآثام الاستعمارية إلا مجموعة من الاستفهامات الاستنكارية التي مؤداها أن الشعب الجزائري وقف إلى جانب فرنسا في تلك الحرب، وأنه فقد أبناءه، وضحى بكل ما تفرضه الحرب، مع أنه لم يكن ينتظر الغنيمة من تلك الحرب؛ لأنه لم يكن طرفا مستقلا فيها، وكل آماله أن توفي الإدارة الفرنسية، والحلفاء الأطلسيون بوعودهم إلى الشعوب الضعيفة المستعمرة ومنها الشعب الجزائري؛ لكن النتيجة كانت عكسية بالنسبة للجزائريين، لذلك يقول الإبراهيمي: «لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعا؟، أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة - فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونـــة من

الفـــزع، والدار مهدومة أو محرقة، والغلة متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهبا مقسما، والصغار هائمين في العراء؟».[39]

والواقع أن من أغرب ما قرأناه في هذا المقال عن سلوكات الاستعمار، في أحداث (8 ماي 1945) في الجزائر، أن الزوجات اللائي فقدن بعولتهن في تلك الأحداث، منعن من الإرث ومن التزوج، وأن الأموال التي أبقتها الأيادي العابثة للعساكر وللمعمرين «الكولون» - حبست، فلم يسمح بها أن تقسم بين الوارثين ! ولا حول ولا قوة إلا بالله ويختم الإبراهيمي هذا المقال بفقرة خالدة؛ ستخلّد هذا اليوم وهذا الشهر، من تاريخ وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلى يوم الدين؛ فيقول: «يا يوم.. لك في نفوسنا السمة التي لا تحمى، والذكرى التي لا تنسى، فكن من أية سنة شئت، فأنت يوم (8 ماي) وكفى. وكل مالك علينا من دين أن نحيي ذكراك، وكل ما علينا لك من واجب أن ندون تاريخك في الطروس لئلا يمسحه النسيان من النفوس».[40]

والخلاصة أن هذا العمل لا يعدو أن يكون تنبيه إلى ضرورة أبحاث جادة في هذا الموضوع سنقوم بها، أو يقوم بها غيرنا في مستقبل الأيام.

الهوامش والمراجع

(1)- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله، د. أحمد طالب الإبراهيمي. ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص331.

(2)- يمثل هذه النظرية في النقد كتاب: ما هو الأدب؟. د. رشاد رشدي. مكتبة: الأنجلو المصرية. القاهرة. (د. ت).

(3)- يمثل هذه النظرية كتاب: مقدمة في نظرية الأدب. د. عبد المنعم تليمة. دار العودة. بيروت - لبنان. ط2 سنة: 1983.

(4)- دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث. د. عبد الله ركيبي. تقديم: صالح جودت. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. (د. ت).ص: 33.

(5)- الشعر الجزائري. الدكتور صالح خرفي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر - بالاشتراك مع: مطابع الشروق. بيروت لبنان (د-ت). ص: 212.

(6)- اللهب المقدس. ص: 71؛ وهو النشيد الوطني الجزائري الرسمي (قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات).

(7)- انظر: ديوان الشيخ الشبوكي. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر. سنة 1995م. ص: 60.

(8)- انظر: الكفاح القومي والسياسي. الجزء الثاني. ص: 241 وما بعدها.

(9)- المرجع نفسه. ص ص: 271-273.

(10)- انظر: 8 ماي 1945 في الجزائر. مرجع سابق. ص: 175.

(11)- عيون البصائر. محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط2. الجزائر. سنة: 1971. ص: 369.

(12)- ديوان محمد العيد محمد علي خليفة. منشورات وزارة التربية الوطنية. الجزائر. سنة: 1967م. ص:326.

(13)- ديوان الشاعر الربيع بوشامة. جمع وتحقيق. د.جمال قنان. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. طبع: المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار. رويبة. الجزائر. سنة: 1994. ص: 59. وانظر هذه القصيدة أيضا في كتاب: الشعر الجزائري. د. صالح خرفي. ص: 60 من الملحق الشعري.

(14)- قد أشرنا إلى تساؤلات كل من الدكتور عبد الله ركيبي والدكتور صالح خرفي في هامشي (24، 25) من هذا البحث، ونشير هنا إلى ما كتبه الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه: دراسات في الأدب الجزائري الحديث. منشورات دار الآداب، بيروت - ط1. سنة: 1966 م. ص: 39. والجديد في نظرة الدكتور سعد الله أنه نظر بنوع من الإيجابية لأحداث 8 ماي 1945) من حيث كونها نشطت أجيالا من الكتاب في هذا الموضوع، ولكن بترعة نحو الحرية والاستقلال والعلم الرفراف، ص 39.

(15)- هوامش على دفتر النكسة، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان سنة 1969، ط4. ص9.

(16)- انظر كتاب: 8 ماي 1945م في الجزائر. ص: 158 وما بعدها.

(17)- مجلة (آمال). العدد (09). الجزائر. سبتمبر – أكتوبر. 1970م ص: 79.

(18)- انظر: عيون البصائر. ص " (367-372).

(19)- انظر: ديوان محمد العيد محمد علي خليفـــة. منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر:رقم (1). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. مطبعة البحث قسنطينة (الجزائر) ط1. سنة 1967م. ص: 325.

(20)- المرجع نفسه. ص: 443.

(21)- انظر: التراويح وأغاني الخيام. أحمد الطيب معاش. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. سنة 1986م. ص: 53-501.

(22)- انظر: مع الشهداء. أحمد الطيب معاش. دار الشهاب (باتنة) الجزائر. ط1 سنة: 1985م. ص: 57،75.

(23)- انظر: إلـــياذة الجزائر. مفدي زكرياء. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. سنة:1987 م. ص: 66، 67.

(24)- انظر: شعراء الجزائر: ديوان ابن رحمون. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. سنة: 1980م. ص:143.

(25)- انظر: روحي لكم (تراجم ومختارات من الشعر الجزائري الحديث). محمد الأخضر عبد القادر السائحي. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. سنة: 1986م. ص: 135.

(26)- انظر: همسات وصرخات. محمد الأخضر السائحي. المطبوعات الوطنية الجزائرية. أشرفت دار الطليعة. بيروت على نشره ط1. سنة: 1965م. ص:81.

(27)- انظر: ديوان الشهيد الربيع بوشامة. جمع وتقديم :الدكتور: جمال قنان. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر. سنة: 1994 م. ص: 50، 58، 150.

(28)- انظر سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام (نادي الترقي) بالجزائر.دار الكتب الجزائر. ط2. سنة: 1982م. ص: 264.

(29)- ديوان محمد العيد محمد علي خليفة. ص: 264.

(30)- المصدر نفسه والصفحة ذاتها. وانظر أيضا كتاب: من وراء القضبان. عبد الرحمن بلعقون. ط2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. سنة: 1969 ص: 163.

(31)- ديوان محمد العيد محمد علي خليفة. ص: 325.

(32)- المصدر نفسه. ص: 327.

(33)- المصدر السابق. ص: 443.

(34)- المصدر نفسه. ص: 444.

(35)- انظر: عيون البصائر. ط2. الجزائر. سنة 1971 م ص: 359 وما بعدها.

(36)- المصدر نفسه. ص: 369.

(37)- المصدر السابق، ص: 371.

(38)- المصدر السابق، ص: 371.

(39)- المصدر السابق، ص: 372.